

﴿سنت الأولين﴾ إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلمهم من الأمم قبلهم وجعل استقبالهم لذلك انتظاراً له منهم وبين أن عابته التي هي الانتقام من مكثي الرسل عادة لا يبدلها ولا يحولها أي لا يغيرها وأن ذلك مفعول له لا محالة واستشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسائرهم ومتاجرهم في رحلهم إلى الشام والعراق واليمن من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم.

أَوَّلُ يَبْرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِمَّ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ يُعْجِزُ مِن شَيْءٍ فَالَسَّوْا أَن يَكُونَ لِلْأَرْضِ لِنَهُمْ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤﴾.

﴿ليعجزه﴾ ليسبقه ويفوته.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنَ الذَّنَبِ وَالَّذِينَ يُؤْخِذُهُمُ اللَّهُ أَجَلٌ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٥﴾.

﴿بما كسبوا﴾ بما اقترفوا من معاصيهم ﴿على ظهرها﴾ على ظهر الأرض ﴿من دابة﴾ من نسمة تدب عليها يريد بني آدم وقيل ما ترك بني آدم وغيرهم من سائر اللوات بشؤم ذنوبهم وعن ابن مسعود: كاد يجعل يعذب في جحره بنذب ابن آدم⁽⁶⁾ ثم تلا هذه الآية وعن أنس: أن الضب ليموت هزلاً في جحره بنذب ابن آدم⁽⁷⁾ وقيل: يحبس المطر فيهلك كل شيء ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى يوم القيامة ﴿كان بعباده بصيراً﴾ وعيد بالجزاء عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة أن يدخل من أي باب شئت⁽⁸⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يس مكية

يس ﴿١﴾.

قرئ: يس بالفتح كآين وكيف أو بالنصب على أتل يس وبالكسر على الأهل كثير وبالرفع على هذه يس أو بالضم كحيث وفخمت الألف وأميلت وعن ابن عباس رضي الله عنهما معنا: يا إنسان في لغة طيء والله أعلم بصحته وإن صح فوجهه أن يكون أصله يا أنيسين فكثر النداء به على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره كما قالوا، في القسم

يقول إن السموات على منكب ملك قال: كذب كعب أما ترك يهوديته بعد! ثم قرأ هذه الآية⁽¹⁾.

وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لِيَتَّجِرَ بِهِمْ كَيْدُ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فَذَرْهُمْ هَلُمُّوا إِلَى اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَكِيٌّ ﴿٢﴾.

بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلمهم فقال: لعن الله اليهود والنصارى انتهت الرسل فكذبوه فوالله لئن آتانا رسول لتكونن أهدى من إحدى الأمم فلما بعث رسول الله ﷺ كذبوه، وفي ﴿إحدى الأمم﴾ وجهان أحدهما من بعض الأمم ومن واحدة من الأمم من اليهود والنصارى وغيرهم والثاني من الأمة التي يقال لها إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة ﴿ما زادهم﴾ إسناد مجازي لأنه هو السبب في أن زالوا أنفسهم نفوراً عن الحق وابتعاداً عنه كقوله تعالى: ﴿فزادهم رجساً إلى رجسهم﴾⁽²⁾.

أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَعْيُنِنَا فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن نَحْدِ لِسَانَ اللَّهِ بِدِيلًا وَكَانَ لِسَانُ اللَّهِ حَرِيصًا ﴿٣﴾.

﴿استكبروا﴾ بدل من نفوراً أو مفعول له على معنى ما زادهم إلا أن نفروا استكباراً وعلواً ﴿في الأرض﴾ أو حال بمعنى مستكبرين وماكرين برسول الله ﷺ والمؤمنين، ويجوز أن يكون ﴿ومكر السيء﴾ معطوفاً على نفوراً.

فإن قُلْتُ: فما وجه قوله ومكر السيء قُلْتُ: أصله وإن مكروا السيء أي المكر السيء ثم ومكر السيء ثم مكر السيء والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولا يحيق للمكر السيء إلا بأهله﴾ ومعنى يحيق يحيط وينزل وقرئ: ﴿ولا يحيق للمكر السيء﴾ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولا يحيق للمكر السيء إلا بأهله﴾ ومعنى يحيق يحيط وينزل وقرئ: ﴿ولا يحيق للمكر السيء﴾ أي لا يحيق الله ولقد حاق بهم يوم بدر وعن النبي ﷺ: «لا تمكروا ولا تعينوا مأكراً»⁽³⁾، فإن الله تعالى يقول: ﴿ولا يحيق للمكر السيء إلا بأهله ولا تبغوا ولا تعينوا باغياً﴾⁽⁴⁾ يقول الله تعالى: ﴿إنما بغيتكم على أنفسكم﴾⁽⁵⁾ وعن كعب أنه قال لابن عباس رضي الله عنهما قرأت في التوراة من حفر مغواة وقع فيها قال: أنا وجدت ذلك في كتاب الله وقرأ الآية وفي أمثال العرب: من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكباً وقرأ حمزة ومكر السيء بإسكان الهمزة وذلك لاستثقاله الحركات مع الياء والهمزة ولعله اختلس فظن سكوتاً أو وقف وقفة خفيفة، ثم ابتدا ولا يحيق وقرأ ابن مسعود ومكراً سيئاً

(1) نكره الطبري في تفسيره.

(2) سورة التوبة، الآية: 125.

(3) نكره ابن المبارك في الزهد، وتقدم في يونس.

(4) سورة فاطر، الآية: 43.

(5) سورة يونس، الآية: 23.

(6) أخرجه الحاكم في المستدرک، وتقدم في يونس.

(7) أخرجه الحاكم في المستدرک وتقدم في النحل.

(8) نكره الواحدي وابن مرويہ والثعلبي في التفسير، الزيلعي /3

م الله أيمن الله.

وَأَلْفَرَاءٍ لِّلْكَبِيرِ ﴿٦﴾.

الظاهر فما تصنع به؟ قُلْتُ: أريد آبائهم الأبنون نون الأبعاد ﴿القول﴾ قوله تعالى: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾⁽³⁾ يعني: تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر.

إِنَّا جَمَلْنَا فِي أَسْتَفْهِمٍ أَفْئَلًا فَبَيَّ عَلَى الْآذِقَانِ فَبَيَّ فَبَيَّ مُمْخَرُونَ ﴿٧﴾.

ثم مثل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى اروعائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطاطئون رؤسهم له وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم في أن لا تأمل لهم، ولا تبصر وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله: ﴿فهي إلى الأذقان﴾! قُلْتُ: معناه: فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزومة إليها وذلك أن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادرًا من الحلقة إلى الذقن فلا تخليه يطاطئ رأسه ويوطئ قذا له فلا يزال مقمحا، والمقمح الذي يرفع رأسه ويغض بصره يقال: قمح البعير فهو قامح إذا روي فرقع رأسه ومنه شهرا قامح لأن الإبل ترفع رؤسها عن الماء لبرده فيهما وهما الكانونان، ومنه اقتحمت السويق.

فإن قُلْتُ: فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدي وزعم أن الغل لما كان جامعا لليد والعنق وبذلك يسمى جامعة كان نكر الأعتاق، دالاً على نكر الأيدي! قُلْتُ: الوجه ما نكرت لك والدليل عليه قوله فهم مقمحون ألا ترى كيف جعل الإقماح نتيجة قوله فهي إلى الأذقان، ولو كان الضمير للأيدي لم يكن معنى التسبب في الإقماح ظاهراً على أن هذا الإضمار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذي يجفو عنه وترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجلج.

فإن قُلْتُ: فقد قرأ ابن عباس رضي الله عنهما في أيديهم وابن مسعود في إيمانهم فهل تجوز على هاتين القراءتين أن تجعل الضمير للأيدي أو للإيمان؟ قُلْتُ: يابى ذلك وإن ذهب الإضمار المتعسف ظهور كون الضمير للأغلال وسداد المعنى عليه كما نكرت.

وَجَمَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٨﴾.

وقرئ سداً بالفتح والضم وقيل: ما كان من عمل الناس فبالفتح وما كان من خلق الله فبالضم ﴿فاغشيناهم﴾ فاعشينا أبصارهم أي غطيناها وجعلنا عليها غشاوة عن

﴿الحكيم﴾ ذي الحكمة أو لانه لليل ناطق بالحكمة كالحكي أو لانه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به.

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٩﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠﴾.

﴿على صراط مستقيم﴾ خبر بعد خبر أو صلة للمرسلين.

فإن قُلْتُ: أي حاجة إليه خبراً كان أو صلة وقد علم أن المرسلين لا يكونوا إلا على صراط مستقيم؟ قُلْتُ: ليس الغرض بنكره ما ذهبت إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته وإنما الغرض وصفه ووصف ما جاء به من الشريعة فجمع بين الوصفين في نظام واحد كانه قال: إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت وأيضاً فإن التذكير فيه دال على أنه أرسل من بين الصراط المستقيمة على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه⁽¹⁾.

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾.

قرئ تنزيل العزيز الرحيم بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وبالنصب على أعني وبالجر على البدل من القرآن.

لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾.

﴿قوماً ما أنذر آبائهم﴾ قوماً غير منذر آبائهم على الوصف ونحوه قوله تعالى: ﴿لتنذر قوماً ما اتاهم من نذير من قبلك﴾⁽²⁾ و﴿ما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾⁽³⁾ وقد فسر ما أنذر آبائهم على إثبات الإنذار ووجه ذلك أن تجعل ما مصدرية لتنذر قوماً أنذر آبائهم، أو موصولة ومنصوبة على المفعول الثاني لتنذر قوماً ما أنذر آبائهم من العذاب كقوله تعالى: ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾⁽⁴⁾.

فإن قُلْتُ: أي فبق بين تعلقي قوله: ﴿فهم غافلون﴾ على التفسيرين؟ قُلْتُ: هو على الأول متعلق بالنفي أي لم يندروا فهم غافلون على أن عدم نذارهم هو سبب غفلتهم وعلى الثاني بقوله إنك لمن المرسلين لتنذر كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره، فإنا غافل أو فهو غافل.

فإن قُلْتُ: كيف يكونون منذرين غير منذرين لمناقضة هذا ما في الآي الأخرى؟ قُلْتُ: لا مناقضة لأن الآي في نفي إنذارهم لا في نفي إنذار آبائهم وآبائهم القديما من ولد إسماعيل، وكانت النذارة فيهم.

فإن قُلْتُ: ففي أحد التفسيرين أن آباءهم لم يندروا وهو

(1) قال أحمد: قد تقدم في مواضع أن التذكير قد يفيد تفضيلاً وتعظيماً

وهذا منه.

(3) سورة سباء، الآية: 44.

(4) سورة النبا، الآية: 40.

(5) سورة هود، الآية: 119.

(2) سورة القصص، الآية: 46.

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقُرْآنِ إِذْ جَاءَهُمُ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾.

﴿واضرب لهم مثلاً﴾ ومثل لهم مثلاً من قولهم عندي من هذا الضرب كذا أي من هذا المثال وهذه الأشياء على ضرب واحد أي على مثال واحد والمعنى: واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية أي انكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية والمثل الثاني بيان للؤلؤ، وانتصاب إذ بأنه بدل من أصحاب القرية والقرية انطاكية ﴿والمرسلون﴾ رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها بعثهم دعاء إلى الحق وكانوا عبدة أوثان.

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتِّينَ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَبَّوْا بِسَائِكِ فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُمُ تُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾.

أرسل إليهم اثنين فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس فسألها فآخبراه فقال أمعكما آية فقالا: نشفي المريض، ونبرئ الأكمة والأبرص وكان له ولد مريض من سنتين فمسحاه فقام فأمن حبيب وفشا الخبر فشفي على أيديهما خلق كثير ورقى حيثيها إلى الملك، وقال لهما: لنا إله سوى آلهتنا؟ قالا: نعم من أوجك وآلهتك فقال: حتى انظر في أمركما فتبعهما الناس وضربرهما وقيل: حبسا ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون فدخل متنكراً وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به فقال له ذات يوم: بلغني أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه؟ فقال: لا حال الغضب بيني وبينك، فدعاها فقال شمعون: من أرسلكما؟ قال: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك فقال: صفاه وأجزا قال: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال: وما آتيكما؟ قال: ما يتمنى الملك فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله حتى انشق له بصر وأخذاً بندقيتين فوضعاها في حديقته فكانتا مقلتين ينظر بهما فقال له: شمعون أرايت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف قال ليس لي عنك سر إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلي ويتضرع ويحسبون أنه منهم، ثم قال: إن قدر إلهكما على إحياء ميت أمنا به فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال إني أدخلت في سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه فأمنوا وقال: فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك ومن هم قال شمعون: وهذا فتعجب الملك فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فأمن وأمن معه قوم، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا ﴿فعزنا﴾ فقربنا يقال المطر يعزز الأرض إذا لبدها وشدها وتعزز لحم الناقة، وقرئ بالتخفيف من

أن تطمح إلى مرثي وعن مجاهد فأغشيناهم فلبسنا أبصارهم غشاوة، وقرئ بالعين من العشا وقيل: نزلت في بني مخزوم وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلي ليرضخن رأسه فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليديمه به فلما رفع أثبت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكه عنها بجهد فرجع إلى قومه، فأخبرهم فقال مخزومي آخر أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى الله عينيه⁽¹⁾.

وَوَآءٌ عَلَيْهِمْ وَأَنْذَرْتَهُمْ أَلَّا لَنْ نُذِرَهُمْ لِأَيُّ يَوْمُونَ ﴿١٥﴾.

فإن قلت: قد نكر ما دل على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الإنذار، ثم قفاه بقوله إنما تنذر وإنما كانت تصح هذه التقفية لو كان الإنذار منفيًا قلت: هو كما قلت ولكن لما كان ذلك نفيًا للإيمان مع وجود الإنذار وكان معناه أن البغية المرومة بالإنذار غير حاصلة وهي الإيمان.

إِنَّمَا تُذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَوَّى الرَّجُلَ بِالْغَيْبِ بِنُفُوسِهِمْ رَاجِحِ كَرِيمِ ﴿١٦﴾.

ففي بقوله: إنما تنذر، على معنى: إنما تحصل البغية بإنذارك من غير هؤلاء المنذرين وهم المتبعون للذکر وهو القرقر أو الوعظ الخاشون ربهم.

إِذْ نَحْنُ نَحْيُ الْمُؤْمِنَ وَمَنْكُومًا مَّا قَدَّمُوا وَآتَرَهُمْ وَكَلَّ نَسْوُهُمْ فِي إِمَارٍ مُّبِينٍ ﴿١٧﴾.

﴿نحبي الموتى﴾ نبعثهم بعد مماتهم. وعن الحسن إحيائهم أن يخرجهم من الشرك إلى الإيمان ﴿ونكتب ما﴾ أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها وما هلكوا عنه من أثر حسن كعلم علموه أو كتاب صفوه أو حبيس حبسوه أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك أو سيئ كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين وسكة أحدثها فيها تخسيرهم وشيء أحدث فيه صد عن نكر الله من الحان، وملاه وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها ونحوه قوله تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾⁽²⁾ أي قدم من أعماله وأخر من آثاره وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد وعن جابر أرضنا النقلة إلى المسجد والبقاع حوله خالية فيبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتانا في بيارنا وقال: يا بني سلمة، بلغني أنكم تربيون النقلة إلى المسجد فقلنا: نعم، بعد علينا المسجد والبقاع حوله خالية فقال: عليكم دياركم، فإنما تكتب آثاركم قال: فما وبدنا حضرة المسجد لما قال رسول الله ﷺ⁽³⁾ وعن عمر بن عبد العزيز لو كان الله مغفلاً شيئاً لاغفل هذه الآثار التي تعفيها الرياح والإمام اللوح، وقرئ ويكتب ما قدموا وآثارهم على البناء للمفعول وكل شيء بالرفع.

(1) ذكره ابن هشام في سيرته: 1/ 290 - 299. = (حديث: 2042)، ومسلم في كتاب: المساجد، باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد، حديث: (280 - 665).

(2) سورة القيامة، الآية: 13.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: الإمامة والجماعة =

المآت هي قُلْتُ: المصدرية أو الموصولة أي بالذي غفره لي من الذنوب ويحتمل أن تكون استفهامية يعني بأي شيء غفر لي ربي يريد به ما كان منه معهم من المصابرة لإعزاز الدين حتى قتل إلا أن قولك بم غفر لي بطرح الألف أجود وإن كان إثباتها جائزاً يقال قد علمت بما صنعت هذا أي بأي شيء صنعت وبم صنعت.

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ (١٨).

المعنى أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك ولم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء كما فعل يوم بدر أو الخندق.

فإن قُلْتُ: وما معنى قوله: ﴿وما كنا منزلين﴾ قُلْتُ: معناه: وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء، وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه نون البعض وما ذلك إلا بناء على ما اقتضته الحكمة أوجبه المصلحة ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فمنهم من أرسلنا عليك حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا﴾ (3).

فإن قُلْتُ: فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق، قال تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم ترها﴾ (4)، بالفاء من الملائكة مردفين، بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، بخمسة آلاف من الملائكة مسؤولين؟ قُلْتُ: إنما كان يكفي ملك واحد فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة منه ولكن الله فضل محمداً ﷺ بكل شيء على كبار الأنبياء وأولي العزم من الرسل فضلاً عن حبيب النجار وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحداً فمن ذلك أنه أنزل له جنوداً من السماء وكأنه أشار بقوله: ﴿وما أنزلنا﴾ ﴿وما كنا منزلين﴾: إلى أن إنزال الجنود من عظام الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك وما كنا نفعله بغيرك.

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً إِذَا هُمْ كَاذِبِينَ ﴿١٨﴾.

﴿إن كانت إلا صيحة واحدة﴾ إن كانت الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة، وقرأ أبو جعفر المنبني بالرفع على كان التامة أي ما وقعت إلا صيحة والقياس والاستعمال على تنكير الفعل لأن المعنى: ما وقع شيء إلا صيحة ولكنه نظر إلى ظاهر اللفظ وإن الصيحة في حكم فاعل الفعل ومثلها قراءة الحسن فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم وبيت ذي الرمة، وما بقيت إلا الضلوع الجراشع، وقرأ ابن مسعود الأزقية واحدة من زقا الطائر يزقو ويزقى

فاسمعون يريد فاسمعوا قولني وأطيعوني فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه أن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدئوكم، وإليه مرجعكم وما أنفع العقول وأنكرها لأن تستحبوا على عبادته عبادة أشياء إن أراكم هو بضر وشفع لكم هؤلاء لم تنفع شفاعتهم، ولم يمكنوا من أن يكونوا شفعاء عنده ولم يقدرُوا على إقناعكم منه بوجه من الوجوه إنكم في هذا الاستحياب لواقعون في ضلال ظاهر بين لا يخفى على ذي عقل وتمييز، وقيل لما نصح قومه أخذوا يرحمونه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل فقال لهم: ﴿إني أمنت بربكم فاسمعون﴾ أي اسمعوا إيماني تشهدوا لي به، وقرئ إن يرديني الرحمن بضر بمعنى أن يورثني ضرراً أي يجعلني مورداً للضرر، أي لما قتل.

يَا أُنْحَلِ الْجِنَّةَ فَالْ كَيْفَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾.

﴿قيل﴾ له ﴿أنحل الجنة﴾ وعن قتادة أنخله الله الجنة وهو فيها حي يزرق أراد قوله تعالى: ﴿بله أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين﴾ (1) وقيل: معناه البشرية بدخول الجنة وأنه من أهلها.

فإن قُلْتُ: كيف مخرج هذا القول في علم البيان؟ قُلْتُ: مخرجه مخرج الاستئناف لأن هذا من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه كأن قائله قال كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب في نصرة دينه والتسخي لوجهه بروحه فقيل قيل أنخل الجنة ولم يقل قيل له لأنصبا الغرض إلى المقول وعظمه لا إلى المقول له مع كونه معلوماً وكذلك ﴿قال يا ليت قومي يعلمون﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليكون علمهم بها سبباً لاكتساب مثلها لأنفسهم بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلها إلى الجنة، وفي حديث مرفوع: «نصح قومه حياً وميتاً» (2) وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والتروّف على من أنخل نفسه في غمار الأشرار، وأهل البيغي والتشمر في تخليصه والتلطف في افتدائه والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل، وهم كفرة عبدة أصنام ويجوز أن يتمنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة وأن عدائهم لم تكسبه إلا فوزاً ولم تعقبه إلا سعادة لأن في تلك زيادة غبطة له وتضاعف لذة وسرور والأول أوجه.

يَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٠﴾.

وقرئ: ﴿المكرمين﴾.

فإن قُلْتُ: ما في قوله تعالى: ﴿بما غفر لي ربي﴾ أي

(3) سورة العنكبوت، الآية: 40.

(4) سورة الاحزاب، الآية: 9.

(1) سورة آل عمران، الآية: 169 - 170.

(2) رواه ابن مردويه في تفسيره، الزليعي: 163/3.

وقيل: محضرون معذبون.

فَان قُلْتُ: كيف أخبر عن كل بجمع ومعناهما واحد؟
قُلْتُ: ليس بواحد لأن كلاً يفيد معنى الإحاطة وأن لا ينفلت
منهم أحد والجميع معناه الاجتماع وأن المحشر يجمعهم
والجميع فعيل بمعنى مفعول يقال حي جميع وجاءوا
جميعاً⁽²⁾، القراءة بالميتة على الخفة أشيع لسلسها على
اللسان.

**وَأَيُّ لَمْ أَرِضُ أَلَيْتَهُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَيَتُهُ
يَأْكُلُونَ** (٢٣).

«أحييناها» استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية
وكلك نسلخ، ويجوز أن توصف الأرض والليل بالفعل لأنه
أريد بهما الجنسان مطلقين لا أرض وليل بأعيانهما⁽³⁾
فعولاً معاملة النكرات في وصفهما بالأفعال ونحوه، ولقد
أمر على اللثيم يسبني، وقوله **«فمنه ياكلون»** بتقديم
الظرف للدلالة على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به
معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس وإذا قل
جاء القحط ووقع الضرر وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء.

وَحَمَلْنَا فِيهَا جَنَّتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجْرًا فِيهَا مِّنَ الْأَمْثُونِ
يَأْكُلُونَ (٢٤).

قرئ: **«وفجرنا»** بالتخفيف والتثقيب والفجر والتفجير
كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى، وقرئ: **«ثمره»** بفتحيتين
وضميتين وضمة وسكون والضمير لله تعالى.

يَأْكُلُونَ مِّنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٢٥).

والمعنى: لياكلوا مما خلقه الله من الثمر **«و»** من **«ما»**
عملته أيديهم من الغرس والسقي والآبار وغير ذلك من
الاعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبان أكله يعني: أن الثمر
في نفسه فعل الله وخلق، وفيه آثار من كد بني آدم وأصله
من ثمرنا كما قال: وجعلنا وفجرنا فنقل الكلام من التكلم
إلى الغيبة على طريقة الالتفات، ويجوز أن يرجع إلى
النخيل وتترك الأعناب غير مرجوع إليها لأنه علم أنها في
حكم النخيل فيما علق به من أكل ثمره، ويجوز أن يراد من
ثمر المنكور وهو الجنات كما قال رؤبة:

فيها خطوط من بياض وبلق كأنه في الجلد توليع البهق
فقيل له فقال: أردت كان ذاك ولك أن تجعل ما نافية
على أن الثمر خلق الله، ولم تعمله أيدي الناس ولا يقدر
عليه.

**سَبَّحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنَ
أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ** (٢٦).

إذا صاح ومنه المثل أثقل من الزواقي **«خامدون»** خموا
كما تخدم النار فتعود رماً كما قال لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوءه يحور رماً بعد إذ هو ساطع
يَحْتَرُّ عَلَى آيَاتِهِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَأَنَّهُ بِرِيٍّ يَسْتَهْرِكُونَ
(٢٧).

«يا حسرة على العباد» نداء للحسرة عليهم كأنما
قيل لها: تعالي يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقك أن
تحضري فيها وهي حال استهزائهم بالرسول والمعنى أنهم
أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ويتلهف على حالهم
المتلهفون أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة
والمؤمنين من الثقلين ويجوز أن يكون من الله تعالى على
سبيل الاستعارة في معنى: تعظيم ما جنوه على أنفسهم
ومحنوها به وفرط إنكاره له وتعجيبه منه وقراءة من قرأ
يا حسرنا تعضد هذا الوجه لأن المعنى يا حسرتي، وقرئ:
يا حسرة العباد على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم من
حيث أنها موجهة إليهم ويا حسرة على العباد على إجراء
الوصل مجرى الوقف.

أَلَمْ يَرَوْا كَرِهَ اللَّهُ لَنَا قَبْلَهُمْ مِنْ تَكْفُرِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُرْجَعُونَ
(٢٨).

«الم يروا» ألم يعلموا وهو معلق عن العمل في
«كهم» لأن كم لا يعمل فيها عامل قبلها كانت للاستفهام
أو للخبر لأن أصلها الاستفهام إلا أن معناه نافذ في الجملة
كما نفذ في قولك ألم يروا إن زيدا لمنطلق وإن لم يعمل
في لفظه **«أنهم إليهم لا يرجعون»** بدل من كم أهلكنا
على المعنى لا على اللفظ تقديره ألم يروا كثرة إهلاكنا
القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم، وعن الحسن
كسر إن على الاستئناف وفي قراءة ابن مسعود ألم يروا
من أهلكنا والبديل على هذه القراءة بدل اشتمال وهذا مما
يرد قول أهل الرجعة ويحكي عن ابن عباس رضي الله
عنه أنه قيل له إن قوماً يزعمون أن علياً مبعوث قبل يوم
القيامة فقال: بس القوم نحن إنن نكحنا نساءه وقسمنا
ميراثه⁽¹⁾.

وَأَنْ كُلُّ لَمَّا جَمِعَ لَدُنَّا مُحْضَرُونَ (٢٩).

وقرئ: **«لما»** بالتخفيف على أن ما صلة للتأكيد، وإن
مخففة من الثقيلة وهي متلقاه باللام لا محالة ولما
بالتشديد بمعنى إلا كالتي في مسألة الكتاب نشدتك بالله
لما فعلت وإن نافية، والتتوين في كل هو الذي يقع عوضاً
من المضاف إليه كقولك مررت بكل قائماً والمعنى أن كلهم
محشورون مجموعون محضرون للحساب يوم القيامة،

= كان جنسياً وليس الغرض منه معيناً، ويراعي هذا المانع المطابقة
اللفظية في الوصفي ومنه:
ولقد أمر على اللثيم يسبني

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 3/145.

(2) قال أحمد: ومن ثم وقع أجمع في التوكيد تابعاً لكل؛ لأنه أخص
منه وأزيد معنى.

(3) قال أحمد وغيره من النحاة: يمنع وقوع جملة صفة للمعرف، وإن =

مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة، وهي الشرطان البطين الثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العوّ السماك الغفر الزباني الإكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الدابح سعد بلع سعد السعود سعد الأخبية فرغ اللؤلؤ المقدم فرغ اللؤلؤ المؤخر الرشا فإذا كان في آخر منازل بق واستقوس ﴿وَعَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ وهو عود العنق ما بين شماليه إلى منبته من النخلة وقال الزجاج: هو فلعون من الانعراج وهو الانعطاف، وقرئ: العرجون بوزن الفرجون وهما لغتان كالبريون والبريون والقديم المحول، وإذا قدم بق وانحنى واصفر فشبّه به من ثلاثة أوجه وقيل: أقل مدة الموصوف بالقدم الحول فلو أنّ رجلاً قال: كل مملوك لي قديم، فهو حر أو كتب ذلك في وصيته عتق منهم من مضى له حول أو أكثر.

لَا أَسْمُسُ بَيْنِي لَمَّا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلُ سَائِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَايٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٦﴾

وقرئ: ﴿سابق النهار﴾ على الأصل والمعنى أنّ الله تعالى قسم لكل واحد من الليل والنهار وأبنيهما قسماً من الزمان وضرب له حداً معلوماً ودير أمرهما على التعاقب فلا ينبغي للشمس أي لا يتسهل لها ولا يصح ولا يستقيم لوقوع التدبير على المعاقبة، وإن جعل لكل واحد من النيرين سلطان على حياله ﴿أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ فتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره ولا يسبق الليل النهار، يعني: آية الليل آية النهار وهما النيران ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك وينقض ما ألف فيجمع بين الشمس والقمر ويطلع الشمس من مغربها.

فإن قلنت: لم جعلت الشمس غير مدركة والقمر غير سابق؟ قلنت: لأن الشمس لا تقطع فلها إلا في سنة والقمر يقطع فلها في شهر فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإنزال لتباطئ سيرها عن سير القمر والقمر خليقاً بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره ﴿وَكُلٌّ﴾ التنوين فيه عوض عن المضاف إليه والمعنى وكلهم والضمير للشمس، والأقمار على ما سبق نكره.

وَمَا يَكْفُرُ لَمْ آتَا حَمَلًا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّكَ الْأَسْحُورِ ﴿٤٧﴾

﴿ذريتهم﴾ أولادهم ومن يهمهم حمله وقيل: اسم الذرية يقع على النساء لأنهن مزارعها وفي الحديث أنه نهى عن قتل الذراري يعني النساء.

وَكَفَلْنَا لَهُمْ مِنْ بَنِيهِمَا مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٨﴾

﴿من مثله﴾ من مثل الفلك ﴿ما يركبون﴾ من الإبل وهي سفائن البر وقيل: الفلك المشحون سفينة نوح ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين وفي أصلاهم هم وذرياتهم، وإنما نكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم وأنخل في التعجب من قدرته في حمل

وقرئ: على الوجه الأوّل وما علمت من غير راجع وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك وفي مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير ﴿الأزواج﴾ الأجناس والأصناف ﴿ومما لا يعلمون﴾ ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها ولا توصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم ولا يبعد أن يخلق الله تعالى من الخلائق الحيوان والجماد ما لم يجعل للبشر طريقاً إلى العلم به لأنه لا حاجة بهم في دينهم وبنياهم إلى تلك العلم ولو كانت بهم إليه حاجة لأعلمهم بما لا يعلمون كما أعلمهم بوجود ما لا يعلمون، وعن ابن عباس رضي الله عنهما لم يسمهم وفي الحديث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعتهم عليه فأعلمنا بوجوده وإعادته ولم يعلمنا به ما هو ونحوه فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وفي الإعلام بكثرة ما خلق مما علموه ومما جهلوه ما دل على عظم قدرته واتساع ملكه.

وَمَا يَكْفُرُ لَهُمْ أَيْلُ سَائِقِ النَّهَارِ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٤٧﴾

سليخ جلد الشاة إذا كسخته عنها وأزاله ومنه سليخ الحية لخرشاتها فاستعير لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل وملقى ظله ﴿مظلمون﴾ داخلون في الظلام يقال: أظلمنا كما تقول أعتنا وأدجينا.

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الرَّزِيقِ الْأَلِيمِ ﴿٤٨﴾

﴿المستقر لها﴾ لحد لها مؤقت مقدر تنتهي إليه من فلها في آخر السنة شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره أو لمنتهى لها من المشارق والمغرب لأنها تتقصاها مشرقاً مشرقاً ومغرباً مغرباً حتى تبلغ أقصاها، ثم ترجع فذلك حدها ومستقرها لأنها لا تعدوه أو لحد لها من مسيرها كل يوم في مرأى عيوننا وهو المغرب وقيل: مستقرها أجلها الذي أقر الله عليه أمرها في جريها فاستقرت عليه وهو آخر السنة وقيل: الوقت الذي تستقر فيه وينقطع جريها وهو يوم القيامة، وقرئ: تجري إلى مستقر لها وقرأ ابن مسعود لا مستقر لها أي: لا تزال تجري لا تستقر، وقرئ: لا مستقر لها على أنّ بمعنى ليس ﴿ذلك﴾ الجري عن تلك التقدير والحساب الدقيق الذي تكل الفطن عن استخراجها وتحرير الأفهام في استنباطه ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور المحيط علماً بكل معلوم.

وَالْقَمَرَ فَذَرْنَهُ مَنَازِلَ حَيْثُ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٤٩﴾

وقرئ: ﴿والقمر﴾ رفعا على الابتداء أو عطفاً على الليل يريد من آياته القمر ونصباً بفعل يفسره قدرناه ولا بد في ﴿قدرناه منازل﴾ من تقدير مضاف لأنه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل والمعنى قدرنا مسيره منازل وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخاضه، ولا يتقاصر عنه على تقدير مستو لا يتفاوت يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر وهذه المنازل هي

نصيبياً فحرمهم وقالوا: لو شاء الله لأطعمكم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قول الله لهم أو حكاية قول المؤمنين لهم أو هو من جملة جوابهم للمؤمنين.

مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٨﴾.

قرئ: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ بإدغام التاء في الصاد مع فتح الخاء وكسرها واتباع الياء الخاء في الكسر ويخصمون على الأصل، ويخصمون من خصمه والمعنى أنها تبغتهم وهم في أمنهم وغفلتهم عنها لا يخطرونها ببالهم مشتغلين بخصوماتهم في متاجرهم ومعاملاتهم وسائر ما يتخاصمون فيه ويتشاجرون، ومعنى خصمون، يخصم بعضهم بعضاً وقيل: تأخذهم وهم عند أنفسهم يخصمون في الحجة في أنهم لا يبيعون.

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَبِيَّةً وَلَا إِلَهَ إِلَّا هَلِيمٌ بَرِحْمَةٌ ﴿٤٩﴾.

﴿فلا يستطيعون﴾ أن يوصوا في شيء من أمورهم ﴿توصية﴾ ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم وأهاليهم بل يموتون بحيث تفجؤهم الصيحة.

وَيُخَيَّرُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥٠﴾.

قرئ: الصور بسكون الواو وهو القرن أو جمع صورة وحركها بعضهم و ﴿الاجداث﴾ القبور وقرئ: بالفاء ﴿ينسلون﴾ يعنون بكسر السين وضمها وهي النفخة الثانية.

قَالُوا يَا بُولَلَاءَ مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۗ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥١﴾.

قرئ: يا ويلتنا، وعن ابن مسعود رضي الله عنه من أهينا من هب من نومه إذا انتبه وأهيه غيره وقرئ: من هبنا بمعنى أهينا وعن بعضهم أراد هب بنا فحنف الجار وأوصل الفعل، وقرئ: من بعثنا ومن هبنا على من الجارة والمصدر و ﴿هذا﴾ مبتدأ و ﴿وما وعد﴾ خبره وما مصدرية أو موصولة، ويجوز أن يكون هذا صفة للمرقد وما وعد خبر مبتدأ محذوف أي هذا وعد الرحمن أي مبتدأ محذوف الخبر أي ما وعد ﴿الرحمن وصدق المرسلون﴾ حق، وعن مجاهد للكفار هجة يجدون فيها طعم النوم فإذا صحب بأهل القبور قالوا من بعثنا وأما هذا ما وعد الرحمن فكلام الملائكة، عن ابن عباس وعن الحسن كلام المتقين وقيل: كلام الكافرين يتنكرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضاً.

فَإِنْ قُلْتُمْ: إِذَا جَعَلْتُمْ مَا مَصْدَرِيَّةً كَانَ الْمَعْنَى هَذَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى تَسْمِيَةِ الْمَوْعُودِ وَالْمَصْدُوقِ فِيهِ بِالْوَعْدِ وَالصَّدَقِ، فَمَا وَجَّهَ قَوْلُهُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ إِذَا

أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح. ومن مثله من مثل ذلك الفلك ما يركبون من السفن والزوارق.

وَلَنْ نَّشَأَ نَفَرَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَمْ وَلَا هُمْ يُعَدُّونَ ﴿٤٧﴾.

﴿لا صريح﴾ لا مغيث، أو لا إغاثة يقال اتاهم الصريح ﴿ولا هم ينفقون﴾ لا ينجون من الموت بالغرق.

إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٨﴾.

﴿إلا رحمة﴾ إلا لرحمة منا ولتمتع بالحياة ﴿إلى حين﴾ إلى أجل يموتون فيه لا بد لهم منه بعد النجاة من موت الغرق ولقد أحسن من قال:

ولم أسلم لكي أبقي ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام⁽¹⁾ وقرأ الحسن رضي الله عنه نغرقهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٩﴾.

﴿اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾ كقوله تعالى: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾⁽²⁾ وعن مجاهد ما تقدم من نوبكم وما تأخر وعن قتادة ما بين أيديكم من الوقائع التي خلت يعني: من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بانياتها وما خلفكم من أمر الساعة ﴿لعلكم ترحمون﴾ لتكونوا على رجاء رحمة الله وجواب إذا محذوف ملول عليه بقوله:

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِن مَّيْمَنٍ مِّنْ أَيْدِي رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٥١﴾.

﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ فكانه قال وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا ثم قال ودأبهم الإعراض عند كل آية وموعظة.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٧﴾.

كانت الزنادقة منهم يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون لو شاء الله لاغنى فلاناً ولو شاء لأعزه، ولو شاء لكان كذا فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله ومعناه: انطعم المقول فيه هذا القول بينكم وذلك أنهم كانوا دافعين أن يكون الغنى والفقر من الله لأنهم معطلة لا يؤمنون بالصانع، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان بمكة زنادقة فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن وقيل: كانوا يوهمون أن الله تعالى لما كان قادراً على إطعامه ولا يشاء إطعامه فنحن أحق بذلك نزلت في مشركي قريش حين قال فقراء أصحاب رسول الله ﷺ: أعطونا مما زعمتم من أموالكم أنها لله يعنون قوله، وجعلوا لله مما نرا من الحرث والأنعام

(2) سورة سبأ، الآية: 9.

(1) سلمت من الحمام إلى الحمام؛ لأنه تعالى: أخبر أنهم إن سلموا من

موت الغرق، فتلك السلامة متاع إلى حين أي: إلى أجل يموتون

فيه ولا بد.

مُمْ وَأَرْجُفُ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرْبَابِكُمْ مُتَكَوِّنُونَ ﴿٥٦﴾.

﴿هم﴾ يحتمل أن يكون مبتدأ وأن يكون توكيداً للضمير في شغل وفي فاكهون على أن أزواجهم يشاركنهم في ذلك الشغل والتفكه والاتكاء على الأرائك تحت الظلال، وقرئ في ظلل والأريكة السرير في الحجلة وقيل: الفراش فيها وقرأ ابن مسعود متكئين.

لَمْ فِيهَا فَتَكَهُهُ وَكَمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿يدعون﴾ يفتعلون من الدعاء أي يدعون به لأنفسهم كقولك اشتوى واحتمل إذا شوي وجمل لنفسه قال لبيد: فاشتوى ليلة ربح واجتمل. ويجوز أن يكون بمعنى يتداعونه كقولك: ارتموه وتراموه وقيل: يتمنون من قولهم ادع علي ما شئت بمعنى تمنه على وفلان في خير ما ادعى أي في خير ما تمنى قال الزجاج: وهو من الدعاء أي: ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم.

سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٨﴾.

﴿وسلام﴾ بدل مما يدعون كأنه قال لهم: سلام يقال لهم ﴿قَوْلًا مِنْ﴾ جهة ﴿رب رحيم﴾ والمعنى أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة مبالغة في تعظيمهم وذلك متناههم ولهم ذلك لا يمنعونه قال ابن عباس: فالملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين وقيل: ما يدعون مبتدأ وخبره سلام بمعنى ولهم ما يدعون سالم خالص لا شوب فيه وقولاً مصدر مؤكد لقوله تعالى: ولهم ما يدعون سلام أي عدة من رب رحيم والأوجه أن ينتصب على الاختصاص وهو من مجازه، وقرئ سلم وهو بمعنى السلام في المعنيين وعن ابن مسعود سلاماً نصب على الحال أي لهم مرادهم خالصاً.

وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَنَّهُا الْمُتَعَرِّفُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿وامتازوا﴾ وانفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة ونحوه قوله تعالى: ﴿يوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾، فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون، وأما الذين كفروا ﴿١﴾ الآية يقال مازه فانماز وامتاز وعن قتادة اعتزلوا عن كل خير وعن الضحك لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى، ولا يرى ومعناه: أن بعضهم يمتاز من بعض.

أَنْزِعْ أَعْيُنَ عَنْكُمْ إِنَّكُمْ رَبَّبْتُمْ مَا لَا كِبَارَ فِيهَا فَمَا تَعْبُدُونَ إِلَّا أَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا نَارَ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا أَعْيُنٌ مَأْثُورَةٌ ﴿٦٠﴾.

العهد الوصية وعهد إليه إذا وصاه وعهد الله إليهم ما ركزه فيهم من أدلة العقل وأنزل عليهم من دلائل السمع، وعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم.

جعلتها موصولة! قُلْتُ: تقديره هذا الذي وعده الرحمن والذي صدقه المرسلون بمعنى والذي صدق فيه المرسلون من قولهم صدقوهم الحديث والقتال ومنه صدقني سن بكرة.

فإن قُلْتُ: من بعثنا من مرقدنا سؤال عن الباعث فكيف طابقه ذلك جواباً؟ قُلْتُ: معناه بعثكم الرحمن الذي وعظكم البعث وأنباكم به الرسل إلا أنه جاء به على طريقة سيئت بها قلوبهم ونعيت إليهم أحوالهم وذكروا كفرهم وتكذيبهم وأخبروا بوقوع ما اندروا به وكأنه قيل لهم: ليس بالبعث الذي عرفتموه وهو بعث النائم من مرقده حتى يهكم السؤال عن الباعث إن هذا هو البعث الأكبر نو الأحوال والأفزع وهو الذي وعده الله في كتبه المنزلة على السنة رسله الصائقين.

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخَضَّرُونَ ﴿٦١﴾.

﴿إلا صيحة واحدة﴾ قرئت منصوبة ومرفوعة.

فَأَلْيَوْمَ لَا تَظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَسَبْتُمْ تَمَلُّونَ ﴿٦٢﴾ إِذْ أَمْسَحَبَ الْجَنَّةُ الْيَوْمَ فِي شُغْلِ فَكَهُونَ ﴿٦٣﴾.

﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً﴾. ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل﴾ حكاية ما يقال لهم في ذلك اليوم وفي مثل هذه الحكاية زيادة تصوير للموعود وتمكين له في النفوس وترغيب في الحرص عليه وعلى ما يثمره في شغل في أي شغل وفي شغل لا يوصف وما ذلك بشغل من سعد يدخل الجنة التي هي دار المتقين ووصل إلى نيل تلك الغبطة وذلك الملك الكبير والنعيم المقيم ووقع في تلك الملاذ التي أعدّها الله للمرتضين من عباده ثواباً لهم على أعمالهم مع كرامة وتعظيم وتلك بعد الوله والصبابة والفضي من مشاق التكليف ومضايق التقوى، والخشية، وتخطي الأهوال وتجاوز الأخطار وجواز الصراط ومعينة ما لقي العصاة من العذاب، وعن ابن عباس في اقتضاض الأيكار وعنه في ضرب الأوتار وعن ابن كيسان في التزاور وقيل: في ضيافة الله، وعن الحسن شغلهم عما فيه أهل النار التنعيم بما هم فيه وعن الكلبي هم في شغل عن أهاليهم من أهل النار لا يهتمهم أمرهم ولا ينكرونهم لأن لا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم، قرئ: في شغل بضمين وضمة وسكون وفتحين وفتحة وسكون، والفاكهة والفاكهة المتنعيم والمتلذذ ومنه الفاكهة لأنها مما يتلذذ به وكذلك الفكاهة وهي المزاحة، وقرئ: فاكهون وفكهون بكسر الكاف وضمها كقولهم رجل حدث وحديث ونطس ونطس وقرئ: فاكهين وفكهين على أنه حال والظرف مستقر.

الأعضاء بالكلام والشهادة.

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبَيِّنُوكَ ﴿١١﴾

الطمس تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة ﴿فاستبقوا الصراط﴾ لا يخلو من أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل والأصل فاستبقوا إلى الصراط أو يضمن معنى: ابتدروا أو يجعل الصراط مسبقاً لا مسبقاً إليه أو ينتصب على الظرف والمعنى أنه لو شاء لمسح أعينهم، فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المهيح الذي اعتادوا سلوكه إلى مسلكهم وإلى مقاصدهم المألوفة التي تردوا إليها كثيراً كما كانوا يستبقون إليه ساعين في متصرفاتهم موضعين في أمور دنياهم لم يقدروا وتعابا عليهم أن يبصروا ويعلموا جهة السلوك فضلاً عن غيره أو لو شاء لأعمالهم، فلو أرادوا أن يمشوا مستبقيين في الطريق المألوف كما كان نك هجيراهم لم يستطيعوا أو لو شاء لأعمالهم فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذي اعتادوا المشي فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقاً يعني: أنهم لا يقدرون إلا على سلوك الطريق المعتاد بون ما وراءه من سائر الطرق والمسالك كما ترى العميان يهتدون فيما ألفوا به وضربوا به من المقاصد بون غيرها.

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتِبِهِمْ فَمَا اسْتَمْتَعُوا مُضْمًا وَلَا بِرِجْمَتٍ ﴿١٢﴾

﴿على مكاتبتهم﴾، وقرئ: على مكاناتهم والمكانة والمكان واحد كالمقامة والمقام أي لمسختناهم مسخاً يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه بإقبال ولا إبطار ولا مضى ولا رجوع واختلف في المسخ فعن ابن عباس لمسختناهم قرودة وخنازير، وقيل: حجارة وعن قتادة لأقعناهم على أرجلهم وأزمناهم. وقرئ: مضياً بالحرركات الثلاث فالمضى والمضى كالعتي والمضى كالصبي.

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

﴿ننكسه في الخلق﴾ نقلبه فيه فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل ونلك أنا خلقناه على ضعف في جسده وخلو من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ويرتقي من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ أشده، ويستكمل قوته ويعقل ويعلم ما له وما عليه فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله قال عز وجل: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً ثم رددناه أسفل سافلين﴾ وهذه دلالة على أن من ينقلهم من الشباب إلى الهرم ومن القوة إلى

وقرى: أعهد بكسر الهمزة وباب فعل كله يجوز في حروف مضارعة الكسر إلا في الياء وأعهد بكسر الهاء وقد جوز الزجاج أن يكون من باب نعم ينعم وضرب يضرب وأعهد بالحاء وأحد وهي لغة تميم ومنه قولهم: لبحا محاً.

وَأَن أَعْتَدُوكَ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿١٤﴾

﴿هذا﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمن إذ لا صراط أقوم منه، ونحو التذكير فيه ما في قول كثير:

لئن كان يهدي برد أنيابها العلى لانقرمني إنني لفقير
أراد إنني لفقير بليغ حقيق بأن أوصف به لكمال شرائطه في وإلا لم يستقم معنى البيت وكذلك قوله: ﴿هذا صراط مستقيم﴾ يريد صراط بليغ في بابه بليغ في استقامته جامع لكل شرط يجب أن يكون عليه، ويجوز أن يراد هذا بعض الصراط المستقيمة توبيخاً لهم على العدول عنه والتفادي عن سلوكه كما يتفادي الناس عن الطريق المعوج الذي يؤدي إلى الضلالة والتهلكة كأنه قيل أقل أحوال الطريق الذي هو أقوم الطرق أن يعتقد فيه كما يعتقد في الطريق الذي لا يضل السالك كما يقول الرجل لولده وقد نصحه النصيح البالغ الذي ليس بعده هذا فيما أظن قول نافع غير ضار توبيخاً له على الإعراض عن نصائحه.

وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكَ جَبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ أَصَلَّوْهَا أَيَّامًا كَثِيرًا تَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾

قرئ: ﴿جبالاً﴾ بضمتين، وضمة وسكون، وضميتين وتشديداً وكسرتين، وكسرة وسكون، وكسرتين وتشديداً، وهذه اللغات في معنى الخلق، وقرئ: ﴿جبالاً﴾ جمع جبلة كقطر وخلق وفي قراءة علي رضي الله عنه: جبلاً واحداً لا جبال.

أَيَّامًا غَيْرَتُمْ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٨﴾

يروى أنهم يجحدون، ويخاصمون فتشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائره فيحلفون ما كانوا مشركين فحينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم وفي الحديث: «يقول العبد يوم القيامة: اني لا أجزع علي شاهداً إلا من نفسي فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي فتنتطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكن وسحقاً فعنك كنت أناضل»^(١)، وقرئ: يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وقرئ: ولتكلمنا أيديهم وتشهد بلام كي والنصب على معنى ولذلك تختم على أفواههم وقرئ: ولتكلمنا أيديهم ولتشهد بلام الأمر والجزم على أن الله يأمر

يُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيَى الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾.

﴿لينذر﴾ القرآن أو الرسول وقرئ: لتنذر بالثناء و لينذر من نذر به إذا علمه ﴿من كان حياً﴾ أي: عاقلاً متاملاً لأن الغافل كالميت أو معلوماً منه أنه يؤمن فيحيا بالإيمان ﴿ويحق القول﴾ وتجب كلمة العذاب ﴿على الكافرين﴾ الذين لا يتأملون، ولا يتوقع منهم الإيمان.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عِجَلًا آيَاتِنَا أَنْعَمْنَا لَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عِجَلًا آيَاتِنَا أَنْعَمْنَا لَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ
﴿٧٦﴾.

﴿مما عملت أيدينا﴾ مما تولينا نحن إحدائه ولم يقدر على توليه غيرنا، وإنما قال: ذلك لبدائع الفطرة والحكمة فيها التي لا يصح أن يقدر عليها إلا هو وعمل الأيدي استعارة من عمل من يعملون بالأيدي ﴿فهم لها مالكون﴾ أي: خلقناهم لأجلهم فملكناهم إياهم فهم متصرفون فيها تصرف الملاك مختصون بالانتفاع فيها لا يزلحون أو فهم لها ضابطون قاهرون من قوله:

أصبحت لأحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا
أي لا أضبطه وهو من جملة النعم الظاهرة وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذليله وتسخيره لها كما قال القائل:
بصرفه الصبي بكل وجه ويحسب عن الخسف الجدير
وتضربه الوليدة بالهراوي فلا غير لسيده ولا نكير

وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَيَنَّا رَكُوبَهُمْ مِنَّا يَا كُفُورًا ﴿٧٧﴾.

ولهذا أزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة ويسبح بقوله سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وقرئ: ركوبهم وركوبتهم وهما ما يركب كالحلوب والحلوبة وقيل: الركوبة جمع، وقرئ: ركوبهم أي نو ركوبهم أو فمن منافعها ركوبهم.

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَسَارِبٌ أَفْلا يَتَكُونُونَ ﴿٧٨﴾.

﴿منافع﴾ من الجلود والأوبار والأصواف وغير ذلك ﴿ومسارب﴾ من اللبن نكرها مجملة وقد فصلها في قوله تعالى: ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً﴾ (3) الآية، والمشارب جمع مشرب وهو موضع الشرب أو الشرب.

وَأَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّهُمْ يُصَرُّونَ ﴿٧٩﴾.

اتخذوا الآلهة طمعاً في أن يتقووا بهم ويعتصموا بمكانهم والأمر على عكس ما قدرنا حيث هم جند لألهتهم معدون.

لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْهَهُمْ وَهُمْ لَمْ يَجِدْ مُخْرَجُونَ ﴿٨٠﴾.

﴿مخضرون﴾ يخدمونهم وينبون عنهم ويغضبون لهم

الضعف ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز ومن العلم إلى الجهل بعد ما نقلهم خلاف هذا النقل وعكسه قادر على أن يطمس على أعينهم ويمسحهم على مكانتهم ويفعل بهم ما شاء وأراد، وقرئ: بكسر الكاف و تنكسه وننكسه من التنكيس والإنكاس ﴿أفلا يعقلون﴾ بالياء والثناء.

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٨١﴾.

كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: شاعر، وروي أن القائل عقبة بن أبي معيط فقيل ﴿وما علمناه الشعر﴾ أي: وما علمناه بتعليم القرآن الشعر على معنى أن القرآن ليس بشعر وما هو من الشعر في شيء وأين هو عن الشعر والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى فأين الوزن وأين التقفية وأين المعاني التي ينتحيا الشعراء عن معانيه وأين نظم كلامهم عن نظمه وأساليبه فإذا لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت اللهم إلا أن هذا لفظه عربي كما أن ذلك كذلك ﴿وما ينبغي له﴾ وما يصح له، ولا يتطلب لو طلبه أي جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يأت له ولم يتسهل كما جعلناه أمياً لا يتهدى للخط ولا يحسنه لتكون الحجة أثبت والشبهة انحض وعن الخليل كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام ولكن كان لا يتأتى له.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فَقُولِهِ:

إننا النبي لا كذب (1) أنا ابن عبد المطلب
وقوله:

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت (2)

قُلْتُمْ: ما هو إلا كلام من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السليقة من غير صنعة، ولا تكلف إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه إليه إن جاء موزوناً كما يتفق في كثير من إنشادات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة لا يسميها أحد شعراً، ولا يخطر ببال المتكلم ولا السامع أنها شعر وإذا فتشت في كل كلام عن نحو ذلك وجدت الواقع في أوزان البحور غير عزيز على أن الخليل ما كان يعد المشطور من الرجز شعراً ولما نفي أن يكون القرآن من جنس الشعر قال ﴿إن هو إلا نكر وقرآن مبين﴾ يعني: ما هو إلا نكر من الله تعالى يوعظ به الإنس والجن كما قال: إن هو إلا نكر للعالمين، وما هو إلا قرآن كتاب سماوي يقرأ في المحاريب ويتلى في المتعبدات وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: من صف أصحابه عند الهزيمة (الحديث رقم: 2930)، ومسلم في كتاب: الجهاد، باب: في غزوة حنين (الحديث: 78 - 1776).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: من ينكب في سبيل الله

(3) سورة النمل، الآية: 80.

من يقدر على إحياء الميت بعدما رمت عظامه، ثم يكون خصامه في الزم وصف له وأصقه به وهو كونه منشأ من موات وهو ينكر إنشائه من موات وهي المكابرة التي لا مطمح وراءها. وروي أن جماعة من كفار قريش منهم

أبي بن خلف الجمحي وأبو جهل والعاصي بن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا في ذلك فقال لهم أبي: ألا ترون إلى ما يقول محمد إن الله يبعث الأموات ثم قال: واللات والعزى لأصيرنَّ إليه ولاخصمنه وأخذ عظمًا باليًا فجعل يفته بيده وهو يقول: يا محمد أتري الله يحيي هذا بعدما قد رمَّ قال ﷺ: «نعم ويبعثك ويخلقك جهنم»⁽³⁾ وقيل: معنى قوله: «فإنذا هو خصيم مبين» فإذا هو بعد ما كان ماء مهينًا رجل مميز منطبق قادر على الخصام مبين معرب عما في نفسه فصيح كما قال تعالى: «ومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين»⁽⁴⁾.

وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى حَلَقَهُ قَالَ مَنْ يُعَيِّ الْعِظَمَ وَيُحْيِي رَمِيمٌ
(٧٨)

فإن قلت: لم سمي قوله «من يحيي العظام وهي رميم» مثلاً؟ قلت: لما دلَّ عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل وهي إنكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتى أو لما فيه من التشبيه لأن ما أنكروا من قبيل ما يوصف الله بالقدرة عليه بنليل النشأة الأولى فإذا قيل من يحيي العظام على طريق الإنكار لأن يكون ذلك بما يوصف الله تعالى بكونه قادرًا عليه كان تعجيبًا لله، وتشبيهًا له بخلقه في أنهم غير موصوفين بالقدرة عليه. والرميم اسم لما يلي من العظام غير صفة كالرمة والرفات فلا يقال لم لم يؤنث، وقد وقع خبر المؤنث ولا هو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ولقد استشهد بهذه الآية من يثبت الحياة في العظام، ويقول: إنَّ عظام الميتة نجسة لأنَّ الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها وأما أصحاب أبي حنيفة فهي عندهم طاهرة وكذلك الشعر والعصب، ويزعمون أنَّ الحياة لا تحلها فلا يؤثر فيها الموت ويقولون المراد بإحياء العظام في الآية ردها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حي حساس.

قُلْ يُحْيِي الَّذِي أَنْشَأَ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ
(٧٩)

«وهو بكل خلق عليم» يعلم كيف يخلق لا يتعاضمه شيء من خلق المنشآت والمعادات ومن أجناسها وأنواعها وجلاظها وبقائنها.

الَّذِي جَمَلَ لَكَ مِنَ النَّجْمِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَسْمُ مِنْهُ نُورٌ وَرَوَّنَ
(٨٠)

ثم نكر من بدائع خلقه انقذاح النار من الشجر الأخضر

والألهة لا استطاعة بهم ولا قدرة على النصر أو اتخوهم لينصروهم عند الله ويشفَعوا لهم والأمر على خلاف ما توهموا حيث هم يوم القيامة جند معلون لهم محضرون لعذابهم لأنهم يجعلون وقودًا للنار.

فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ
(٨١)

وقرى: «فلا يحزنك» بفتح الياء وضمها من حزنه أو حزنه والمعنى فلا يهمنك تكذيبهم وإذا هم وجفاؤهم فإننا عالمون بما يسرون لك من عداوتهم «وما يعلنون» وإنما مجاوزهم عليه فحق مثلك أن يتسلى بهذا الرعيد ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتى ينقشع عنه الهم ولا يرهقه الحزن.

فإن قلت: ما تقول فيمن يقول إن قرأ قارىء أنا نعلم بالفتح انتقضت صلواته وإن اعتقد ما يعطيه من المعنى كفر؟ قلت: فيه وجهان أحدهما أن يكون على حذف لام التعليل وهو كثير في القرآن وفي الشعر وفي كل كلام، وقياس مطرد وهذا معناه ومعنى الكسر سواء وعليه تلبية رسول الله ﷺ إنَّ الحمد والنعمة لك⁽¹⁾ كسر أبو حنيفة وفتح الشافعي وكلاهما تعليل والثاني أن يكون بدلًا من قولهم كأنه قيل: فلا يحزنك إننا نعلم ما يسرون، وما يعلنون وهذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول فقد تبين أن تعلق الحزن بكون الله عالمًا وعدم تعلقه لا يدوران على كسر إن وفتحها وإنما يدوران على تقديرك فنفضل إن فتحت بأن تقدَّر معنى التعليل ولا تقدَّر البديل كما أنك تفصل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت، ولا تقدَّر معنى المفعولية، ثم إن قدرته كاسرًا أو فاتحًا على ما عظم فيه الخطب تلك القائل فما فيه إلا نهى رسول الله ﷺ عن الحزن على كون الله عالمًا بسرهم وعلانيتهم وليس النهي عن ذلك مما يوجب شيبًا ألا ترى إلى قوله تعالى: «فلا تكوننَّ ظهيري للكافرين»⁽²⁾، ولا تكوننَّ من المشركين ولا تدع مع الله إلهاً آخر.

أَوَّلَ رَرٍ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مُبِينٌ
(٨٢)

قبح الله عزَّ وجل إنكارهم البعث تقيبًا لا ترى أعجب منه وأبلغ وأدل على تمادي كفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادي وتوغله في الخسة، وتغلفه في القحة حيث قرره بأن عنصره الذي خلقه منه هو أخس شيء وأمهنة وهو النطفة المنزرة الخارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة، ثم عجب من حاله بأن يتصدى مثله على مهانة أصله وبناءة أوله لمخاصمة الجبار وشرز صفحته لمجادلته ويركب متن الباطل ويلج ويمحك ويقول:

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: التلبية (الحديث رقم: 1549)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: التلبية ووصفتها ووقتها

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/429.

(3) سورة الزخرف، الآية: 18.

(الحديث رقم: 21 - 1184).

(2) سورة القصص، الآية: 86.

﴿فسبحان﴾ تنزيه له مما وصفه به المشركون وتعجب من أن يقولوا فيه ما قالوا: ﴿بيده ملكوت كل شيء﴾ هو مالك كل شيء والمتصرف فيه بموجب مشيئته وقضايا حكمته، وقرئ: ملكة كل شيء ومملكة كل شيء وملك كل شيء والمعنى واحد ﴿ترجعون﴾ بضم التاء وفتحها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كنت لا أعلم ما روي في فضائل يس وقراءتها كيف خصت بذلك فإذا أنه لهذه الآية قال رسول الله ﷺ: ﴿إن لكل شيء قلباً، وإن قلب القرآن يس من قرأ يس يريد بها وجه الله غفر الله مرة﴾ (3) وأيما مسلم قرئ عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفًا يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه، وأيما مسلم قرأ يس وهو في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يحييه رضوان خازن الجنة بشرية من شراب الجنة يشربها، وهو على فراشه فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ويمكث في قبره وهو ريان، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان وقال عليه الصلاة والسلام: إن في القرآن سورة يشفع قارئها ويغفر لمستمعها إلا وهي سورة يس (4).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الصافات مكية

وَأَمَّا نَسَبٌ مَّا لَا

أقسام الله سبحانه بطوائف الملائكة أو بنفوسهم الصافات أقدامها في الصلاة من قوله تعالى: ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ (5) أو أجنحتها في الهواء واقفة منتظرة لأمر الله.

فَأَرْجَحُ زَكَاةً

﴿فالزجاجات﴾ السحاب سوقًا.

فَأَلْبَسْتَنِي زِكْرًا ﴿٢﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَّيدٌ ﴿٤﴾

﴿فالتاليات﴾ لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها وقيل: الصافات الطير من قوله تعالى: ﴿والطير صافات﴾ والزجاجات: كل ما زجر عن معاصي الله والتاليات: كل من تلا كتاب الله ويجوز أن يقسم بنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها في التهجذ وسائر الصلوات وصفوف الجماعات فالزجاجات بالمواعظ والنصائح، فالتاليات آيات الله

مع مضادة النار الماء وانطفائها به، وهي الزناد التي توري بها الأعراس وأكثرها من المرخ والعفرار وفي أمثالهم في كل شجر نار. واستمجد المرخ والعفرار يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو نكر على العفار، وهي أنتى فتندفح النار بلذن الله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ليس من شجرة إلا وفيها النار إلا العناب (1) ولذلك تتخذ منه كذيققات القصارين، وقرئ: ﴿الأخضر﴾ على اللفظ وقرئ: الخضراء على المعنى ونحوه قوله تعالى: من شجر من زقوم فمالتون منها البطون فشاربون عليه من الحميم.

أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾

من قدر على خلق السموات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خلق الأناسي أقدر وفي معناه قوله تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ (2) وقرئ: يقدر وقوله: ﴿أن يخلق مثلهم﴾ يحتمل معنيين أن يخلق مثلهم في الصغر والقماء بالإضافة إلى السموات والأرض أو أن يعيدهم لأن المعاد مثل للمبتدأ وليس به ﴿وهو للخلق﴾ الكثير المخلوقات ﴿العليم﴾ الكثير المعلومات وقرئ: الخالق.

إِنَّ أَمْرَهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾

﴿إيما أمره﴾ إنما شأنه ﴿إذا أراد شيئاً﴾ إذا دعاه داعي حكمة إلى تكوينه ولا صارف ﴿أن يقول له كن﴾ أن يكونه من غير توقف ﴿فيكون﴾ فيحدث أي فهو كائن موجود لا محالة.

فإِن قُلْتُمْ: ما حقيقة قوله أن يقول له كن فيكون؟ قُلْتُمْ: هو مجاز من الكلام وتمثيل لأنه لا يمتنع عليه شيء من المكوبات وأنه بمنزلة المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الأمر المطاع.

فإِن قُلْتُمْ: فما وجه القراءتين في فيكون؟ قُلْتُمْ: أما الرفع فلأنها جملة من مبتدأ وخبر لأن تقديرها، فهو يكون معطوفة على مثلها وهي أمره أن يقول له كن وأما النصب فللعطف على يقول، والمعنى: أنه لا يجوز عليه شيء مما يجوز على الأجسام إذا فعلت شيئاً مما تقدر عليه من المباشرة بحال القدرة واستعمال الآلات وما يتبع ذلك من المشقة والتعب واللغوب إنما أمره وهو القادر العالم لذاته أن يخلص داعيه إلى الفعل، فيتكون فمثلته كيف يعجز عن مقبور حتى يعجز عن الإعادة.

فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِيرُ مَلَكُوتُهُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

(1) لم يخرج الزليعي.

(2) سورة غافر، الآية: 57.

= سورة يس (الحديث رقم: 2887).

(4) نكره الثعلبي في تفسيره، الزليعي 171/3.

(5) سورة الصافات، الآية: 165.

(3) أخرج أوله الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في =